التكنولوجيا موجبٌ كافٍ للسعادة: شبهةٌ وردودٌ

د. محمد علي أردكان*

الخلاصة

هل نحن بحاجةٍ إلى العقيدة في عصرنا عــصر التكنولوجيا وتطوّر العلوم البشريّة المحيّر للعقول؟ وهل يستطيع الإنسان فعلًا أن يكتفي بالتكنولوجيا والتطوّرات الحديثة عنصرًا يخلق له السعادة والراحة، ويضع العقيدة أو الدين والمذهــب جانبًا؟ وهل يمكن حذف العقيدة من الحياة أساسًــا؟ تحاول هٰذه المقالة الإجابة عن هٰذه الأسئلة. وعند إجابتنا عن ذٰلك عبر المنهج التوصيفيّ والتحليليّ، نــرى أنّ العقيدة لها دورٌ محوريٌّ وأســاسيٌّ في هوية الإنســان وحياته، وليس هٰذا فحسب بل تتضاعف حاجة كلّ شخصٍ من أبناء البشر

(*) الدكتور محمدعلي محيطي أردكان، إيران، أستاذ مساعد في قسم الفلسفة، مؤسسة الإمام الخميني للتعليم والأبحاث. hekmatquestion@gmail.com

إلى العقيدة كلّما واكب التطوّر العلميّ. ويمكن القول إنّ الوصول إلى السعادة الحقيقية والأبديّـة لا يمكن إلّا بالتزوّد من العقيـدة الصحيحة والعمل في ضوئهـا. أضف إلى ذٰلك أنّ تصوّر الحياة في عـصر التكنولوجيا والإفادة من معطياتها لا يمكـن دون الالتزام العمليّ بخلفياتها الفكريّة والعقديّة، ومن هنا تتبلور محوريّة العقيدة وأهمّيّتها من أجل الإفادة المعقولة والمنضبطة من نتاجات العلوم البشريّة.

المفردات الدلاليّة: العقيدة، عصر التكنولوجيا، السعادة، المعنويّة.

المقدّمة

من أوجد الإنسان وسائر المخلوقات في العالم؟ وما هي علاقته مع خالقه وموجده؟ ما هو الهدف من خلق الإنسان؟ ولماذا يعيش الإنسان في هٰذه الدنيا المحفوفة بالبلايا والمحن؟ ما هو الطريق إلى السـعادة؟ وماذا سيحدث بعد موت الإنســان ومغادرته هٰذه الحياة؟ هل يسـتوي الناس بعد مماتهم فتكون عاقبة المؤمنين والملاحـدة واحدةً؟ أجل، هناك الكثير من الأسـئلة يمكن أن تطرح أمام أيّ إنســانٍ طيلة حياته القصيرة. ويعدّ هاجس هٰذه الأسئلة نماذج من الأسـئلة البنيويّة الّتي تراود الإنســان منذ نعومة أظفاره إلى آخر لحظات عمره. ومن البعيد جدًّا أن تغيب عن ذهن الإنسان ولم يتأمّل ويهتم فيها أو لم تخطر بباله ولو لمرّةٍ واحدةٍ في حياته. إنّ الإجابة عن أسـئلةٍ كهٰذه مهمّةٌ للغاية بغضّ النظر عن الدين أو المذهب الّذي يعتنقه المرء، وإنّ نتائجها سـتؤثّر في طبيعة حياته وكيفيّة سلوكه على الصعيدين الفرديّ والاجتماعيّ؛ ولهٰذا السـبب يمكن القول إنّ الإنسان لم يعش ولن يعيش ـ بل لا يمكنه العيش ـ دون العقيدة، أجل فإنّ حياة الإنســان مملـوءةٌ بالمعتقدات، ولا

يمكن أن تخلو منها. ومن هنا يظهر أنّ الأسـئلة الأساسيّة في حياة كلّ إنسانٍ بحاجةٍ إلى أجوبةٍ مقنعةٍ ومنطقيّةٍ، سواءٌ كانت عن شعورٍ ووعيٍ أو لا، وسواءٌ عاش الإنســان في العصر الحجري أو في عصر التكنولوجيا، وحتّى في عصر التطوّرات العلميّة المدهشة.

وربّما يُتصوّر أنّنا لسنا بحاجةٍ إلى العقيدة في عصر التكنولوجيا والعولمة، ويمكننا تلبية كلّ الحاجات عبر الاسـتعانة بالنتاجات التقنيّة وما توصّلت إليه العلوم الطبيعيّـة حديثًا. ويبدو أنّ جذور هٰـذا التصوّر غير الصحيح انبثقـت منذ عـصر النهضة الأوروبيّة والتحـوّل الفكريّ الشـامل وتأثير الاكتشـافات والاختراعات في العلوم الطبيعيّة، وانكفاء الفكر الفلسـفيّ والعقليّ وضمـوره في برهةٍ من الزمـن [See: Copleston, A History of Philosophy, V.3, ch18]. وتجدر الإشارة إلى أنّ ظهور وانتشار الإسمانيّة أو الاسميّة (أصالة التسمية = Nominalism)، وإنكار الكلّيّات [المنطقيّة] في القرن الرابع عشر وما تلاه، وكذٰلك ظهور أشـخاصٍ تجريبيـين (Empiricists) كديفد هيوم (David Hume)، وبروز التيّارات الإنسـانيّة (Humanism)، وغضّ الطرف عن المسائل الإلٰهيّة، وعدم الاهتمام بمسائل ما وراء الطبيعة، والتوجّه صوب التحرّر المفرط؛ أسهم في انحسار الدور الأساسيّ للعقيدة في عصر التكنولوجيا. أضف إلى ذٰلـك دور المذهب التجريبيّ المفرط الّذي عُرِف بالمذهب الوضعي (Positivism)، الّذي عدّ المفاهيم الاسـتنتاجيّة للعلوم مفاهيم غير علميّةٍ وليست ذات معنًى. فاعتقد أوغوسـت كونت (Auguste Comte) بالمذهب الوضعيّ بعد تقسـيمه الفكر البـشريّ إلى ثلاث مراحـل، وهي: الدينيّة والفلسفيّة والعلميّة (الوضعيّة) وتبنّى شريعة عبادة الإنسان! ولا ننسى الدور الّذي لعبـه المذهب البراجماتيّ في هٰذا المضمـار. والنتيجة هي عدم بقاء أيّ

مجالٍ للدين والعقيدة مع هٰذه الرؤية الحسّيّة والتجريبيّة المفرطة. هٰذا الاتّجاه بمراتبه المختلفة سارٍ في تاريخ الفكر الفلسفيّ الغربيّ، ويُنشر يومًا بعد يومٍ في المراكز العلميّــة العالميّة. تركّز هٰذه المقالــة على محوريّة العقيدة في عصر التكنولوجيا من خلال بيان المقصود من أهمّ المفردات الدلاليّة، أي العقيدة والتكنولوجيا، ومن ثمّ بيان علاقة عــصر التكنولوجيا بالعقيدة، وضرورة العقيدة ومحوريّتها في هٰذا العصر.

العقيدة

إنّ كلمة "عقيدة" مأخوذةٌ من الـ (عَقْد)، وهو نقيض الحلّ [ابن منظور، لسان العرب، ج 9، ص 309] بمعنى الإحكام والجزم دون شكٍّ. ويقال فيما يجب الاعتقاد به، فالْعَقِيدَةُ مَا يَدِينُ الْإنسان بِهِ، وَلَهُ (عَقِيدَةٌ) حَسَنَةٌ يعني سَالِمَةٌ مِنَ الشَّكّ [الفيّوميّ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعيّ، ج 2، ص 421] وأمّا المقصود من العقيدة بمعناها العامّ في هٰذا المقــال عبارةٌ عمّا يلزم قبوله وتصديقه بحكم الذهن الجازم، وبدون شكٍّ على أســاس الأدلّة الصحيحة، فتخرج العقيدة الباطلة من هٰذا التعريف.

ماهيّة التكنولوجيا

لقد جرّب التاريخ الفلســفة الغربيّة بوصفها مرحلــةً جديدةً بعد فترة القرون الوسطى والتحوّل الفكريّ الشــامل في أوربّا، وشاهد تحوّلًا عظيمًا بعد أفول العقلانيّة التجريديّــة من جانبٍ وتطوّر العلوم التجريبيّة والمنهج التجريبيّ من جانبٍ آخر. فاهتمّ الإنســان في عصر الحداثة بتسخير الطبيعة إلى أقصى حدٍّ خدمةً للإنسان وطموحاته في عالم الطبيعة، وهو يرى أنّ إعادة النظر والفكر في كيفيّة اســتخدام الطبيعة تســاعده كثيرًا في حلّ الشدائد

والمشـــاكل. فلا بدّ من التعرّض إلى الطبيعة [Heidegger, The Question Concerning Technology and Other Essays, p14-16] ، بحيـــث تصلح لخدمة آمال البشر؛ لأنّ الإنسان هو محور الخلق وأفضله. فهو دائمًا يبحث عن علل الظواهر المادّيّة، ويغفل عن غاياتها الحقيقيّة. يرى الإنسان المعاصر التكنولوجيا منقذًا يسلك به إلى المدينة الفاضلة.

لقد أثّرت التكنولوجيا تأثيرًا هامًّا وملفتًـــا للنظر بما تمتاز به من تطوّرٍ آنيٍّ وتقدّمٍ هائلٍ وسريعٍ، لا على أفكار الإنسان ومعارفه فقط، بل وعلى ميوله ونزعاته أيضًا، فيلاحظ الإنســـان أنّ التكنولوجيا توسّـــعت بشكلٍ يؤدّي إلى إضعاف دور العقيدة أحيانًا وتقليل أهمّيّتها في حياته. [ظ: أ. وارم العـــيد وبرج بوعريريـــج، البعد الثقافيّ للعولمة وأثره على الهويّة الثقافيّة للشـــباب العربيّ / الشـــباب الجامعيّ الجزائريّ نموذجًا، ص 9_25]

فتحوّلت التكنولوجيا في الواقع إلى بوصلةٍ يتحرّك الإنســـان وفق ما تشير له، وهي ما يحدّد له منهج حياته ويدير طبيعة سلوكه الفرديّ والاجتماعيّ.

وربّمـــا أدّى هٰذا التأثير التكنولوجيّ في فترةٍ من تاريخ الفكر الفلســـفيّ الغربيّ إلى انحســـار دور العقيدة بصورةٍ عامّةٍ، وتغييب مكانة الدين في حياة الإنســـان لا ســـيّما في العالم الغربيّ. إذن يهمّنا دراســـة ماهيّة التكنولوجيا والمقصود منها هنا باعتبارهـــا أهمّ المفردات الدلاليّة في هٰذه المقالة، فدعونا أوّلًا نبيّن قصدنا من (التكنولوجيا) بصورةٍ أوضح:

عـــرّف العلماء مفردة التكنولوجيا تعاريف متنوعةً وقام بعضهم بتبويبها [ظ: سيدمحمد اعرابى و حسين منتى، استراتژى تكنولوژى، ص 32 - 34؛ George, Religion and Technology in the 21st Century: Faith in the E-World: 7-34؛ Ellul, The technological system, p23؛ Faith in e-world, p3]

ولٰكن ليس من الضروريّ أن نســـتعرض التعاريف الموجودة وندرس أجزاء كلّ تعريـــفٍ لهٰذه المفردة. هٰذه المفردة كســـائر المفردات الحديثة والمشـــابهة لهـــا مثـــل التجـــدّد [Foucault, Politics,Philosophy, Culture, p34] لم يقصد منها معـــنًى واحدٌ ومتّفقٌ عليه، ولٰكن نبيّن ما قصدنـــاه منها في هٰذه المقالة بعد التعريف اللغويّ. التكنولوجيا (Technology) في اللغة مركّبٌ من مفردتين في اليونانيّـــة وهما بمعنى المهارة و بمعـــنى العلم والمعرفة. وفي معرض بياننا لمعـــنى التكنولوجيا الاصطلاحيّ يمكن تعريفها بعـــد إمعان النظر في أجزاء كلّ من تعاريف التكنولوجيا المتعـــدّدة، والالتفات إلى التحوّلات المفهوميّة لهٰذه المفردة في القرون الأخـــيرة، وكذٰلك النظر إلى نتاجات هٰذه الظاهرة في العصر الحديث فنعرّف التكنولوجيا بمجموعةٍ منظّمةٍ ومنسجمةٍ من الآلات والمهـــارات والمعلومات والأفعال الّتي يمكن أن تقع في طور الاســـتجابة إلى حاجـــات البشر وتلبيتها، وذٰلك من خـــلال إدارة الطبيعة وتغييرها لصالح الإنسان. وقد أشارت التعاريف الموجودة للتكنولوجيا إلى بعضٍ من مؤلّفات تعريفنا. وسنبحث جذور الاختلاف في تعريف التكنولوجيا في مجال فلسفة التكنولوجيا، ويمكن التعرّف عليها من خلال دراســـة آثار هايدغر ودون آيدي وغيرهم ممّن تطرّقوا لذٰلك.

وفي ضـــوء تعريفنا المختار للتكنولوجيا، يمكن تقســـيمها إلى ما يمثّل له بأدواتٍ عصريّـــةٍ ومتطوّرةٍ كالهواتف الذكيّة والحاســـبات ومختلف الأجهزة الكهربائيّة أو ما شـــابه ذٰلك. وعندما تطلق التكنولوجيـــا عادةً يتداعى إلى الذهن هٰذا القســـم، وإلى ما هو أعمّ منه بحيث يمكن أن يعدّ البحث التقنيّ عن الأساليب والمناهج الحديثة في مجال التربية والتعليم والسياسة والاقتصاد وعلـــم الإدارة وغيرها نماذج للقســـم الثاني، وهو مقصـــود الكتاب في هٰذه المقالة. ويبقى علينا الاعتراف بأنّ التقنية الحديثة باتت تحيط بجميع شـــؤون الحياة الإنسانيّة، وتستحوذ على كلّ تفاصيلها.

خصائص التكنولوجيا

من منّا لم يجرّب بعض الآثار الضارّة للتكنولوجيا في العصر الحاضر، أو لم يتعرّض إلى مخاطرها، أو لم يسمع بها على الأقل؟! رغم أنّنا لا ننكر بعض فوائدها ومنافعها الظاهريّة على الصعيدين الكيفيّ والكمّيّ؛ إذ أصبحت من اللوازم الّتي لا يمكن أن تنفكّ عن حياة البشر اليوميّة، ولا بدّ من الاعتراف بأنّ تقدّم البشر العلميّ في بعض المجالات وفّر له خير فرصةٍ لاستخدامها على نطاقٍ واسعٍ في مسير سعادته. أجل، يبقى الكلام في نجاح الإنسان العصريّ في تحقيق آماله المعنويّة بحاجةٍ إلى تحقيقٍ ودراسةٍ. لقد اتّفق علماء الإسلام والغرب على الاعتراف بآثار التكنولوجيا السلبيّة في شتّى المجالات، سواءٌ ما تعلّق منها بالأخلاق أو الثقافة أو البيئة أو الاقتصاد أو السياسة أو غير ذٰلك، وحذّروا البشريّة من الوقوع في مستنقعها ومهالكها! أجل فإنّ للتقنية الحديثة رؤيتها الكونيّة الخاصّة، وليس من الصحيح أن نتصوّر أنّها محايدةٌ تنظر إلى الأشياء والقضايا بتجريديّةٍ خالصةٍ. [رفيق، مخاطر العولمة على الهويّة الثقافيّة للعالم الإسلامي، ص5_16]

وهنا سنسلّط الضوء على طبيعة الخطورة الذاتيّة للتكنولوجيا؛ لغرض التمهيد للوصول إلى نتيجة البحث في هٰذه المقالة، وأيضاً من أجل تبيين ضرورة العقيدة في عصر التكنولوجيا وأهمّيّتها، وأمّا الحديث عن طبيعة علاقة الدين بالتكنولوجيا والتقنية الحديثة، فتحتاج إلى بحثٍ مستقلٍّ. وجديرٌ بالذكر أنّنا نبحث التكنولوجيا بمصداقها الحاليّ، وندع الملفّ مفتوحًا للبحث عن ماهيّة التكنولوجيا المطلوبة، وإمكانها الذاتيّ والوقوعيّ أو عدمه؛ ولذٰلك بعد غضّ النظر عن بعض منافع التكنولوجيا الظاهرة في العصر الحاليّ، سنشير إلى بعض النتائج السيّئة لعصر التكنولوجيا، وهي:

1. ضيق الوقت وتقلّص الفرصة الكافية: إنّ الإنسان المعاصر وفي عصر التكنولوجيا ليس لديه فرصةٌ كافيةٌ للتأمّل والتفكّر في أهمّ مسائل حياته، وفي الواقع بدأت العلاقات الإنسانيّة تتعقّد منذ القرون الماضية وحتّى العصر الحالي، بحيث يُعدّ الوصول إلى الهدوء الفكريّ جنّةً مفقودةً وكبريتًا أحمر وأملًا بعيدًا غير متوقّع الحصول، حتّى لو تضاعف التطوّر التكنولوجيّ ألف مرّةٍ.

2. ضعف المهارات اللازمة لمواجهة الصراعات المحتدمة والتحدّيات المعاصرة: على الرغم من تنمية وسائط التواصل الاجتماعيّ وتطوّرها يومًا بعد يومٍ، وخلافًا للتوقّع العامّ، لم تُحلّ ولم تتضاءل مشاكل البشر وعقباته الاجتماعيّة والأخلاقيّة والثقافيّة و...، وليس هٰذا فحسب، بل ازدادت وتعمّقت وتعقّدت المعضلات والصعوبات واحتار الإنسان العصريّ في حياته اليوميّة، وصار يعجز عن توفير القدرات اللازمة للمواجهة المعقولة والصحيحة للصراعات والتحدّيات المحتدمة والوقوف أمامها. ومن هٰذا المنطلق، لم يشهد التاريخ الاجتماعيّ المعاصر توقّفًا عن إحصاء الخسائر والأضرار البشريّة كالانتحار والكآبة والقتل والطلاق وغيرها على الرغم من التطوّر العصريّ للتكنولوجيا، بل تزايد عددها في العصور المتأخّرة.

3. جموح الرغبة في التغيير والتنوّع: إنّ بلوغ الإنسان مرحلة التحكّم في الطبيعة وتسخيرها، ونجاحه نجاحًا باهرًا في هٰذا الإطار، قد طغى على أبعادٍ حياتيّةٍ مختلفةٍ في مسيرته، بحيث غيّر ذٰلك الكثير من سلوكه ومنهجه الحياتيّ بشكلٍ غير متوقّعٍ، وهٰذه المزايا الّتي رافقت القفزة الصناعيّة والعلميّة والتجريبيّة المهمّة والكبيرة أثّرت وبشكلٍ كبيرٍ على حدود المعارف البشريّة وطبيعتها، بل استحوذت على مساحةٍ كبيرةٍ ومهمّةٍ من تفكيره، حتّى ساقت الإنسان - وإن من دون شعورٍ أو قصدٍ - إلى مذاهب ومدارس فكريّةٍ

متنوّعـــةٍ. وفي ضوء هٰذه الرؤية يُعدّ كلّ ما هو جديدٌ ومتقدّمٌ ذا قيمةٍ، ويحظى بالأولويّة في اختياره وتوظيفه، ويفقد مـــا دون ذٰلك قدره. والدين والعقيدة ليسا مســـتثنيين من هٰذه القاعدة! فالإنســـان في العصر المتجدّد لا بدّ وأن يكون في حال التغيير الدائم؛ طالبًا لما هو جديدٌ، وراغبًا عن القديم.

4. الضعـــف في مجال الرؤية الكونيّة: بملاحظة عدم كون الرؤى الكونيّة الغربيّة إلٰهيّةً ومستلهمةً من المصادر الحقّة، نشاهد نشوء الكثير من المذاهب والمدارس الفكريّة من قبل التيّارات المختلفـــة الّتي يزداد عددها يومًا بعد آخـــر. فإنّ الكثير من المذاهب البشريّـــة - إن لم نقل كلّها - يعاني من المباني المعرفيّـــة والأنطلوجيّـــة والكلاميّة، ولا يبتني على المعرفـــة الصحيحة من الإنســـان وقيمه الأخلاقيّة و...؛ ولهٰذا السبب لا يفيد الإنسان ولا يزيده إلّا تحيّرًا وغيًّا وضلالًا. فليس من العجب أن يقع أمثال مونتني في تاريخ الفكر الغربيّ في مســـتنقع الشكّ، ويحاول الفلاسفة إنقاذ من أوقع نفسه في تهلكة الشكّ والنسبيّة خلال قرونٍ.

5. الاســـتقطاب الهادف للناس إلى الإنجازات العصريّة المحيّرة للعقول: على الرغم من وجود بعض النتائج السيئة للتكنولوجيا، يتحدّث البعض عن استخدامٍ هادفٍ للتكنولوجيا، ولٰكن مع أهدافها المحدّدة سلفًا واستخداماتها اليوميّة، فهي تسوق البشر نحو استخدامها، بحيث أصبح الكلام عن اختيار التكنولوجيا أو اســـتخدامها وفقًا للاحتياجات البشريّة ومقتضى الطبيعة، ومتلائمًا مع ثقافة الشـــعوب وعاداتها، وأخلاقيّات المجتمعات وقواعدها، أصبح شـــعارًا لا يرى النور في مقـــام العمل، ومن الصحيـــح أن نقول: «إنّ التكنولوجيا تغيّر الآداب، أو ببساطةٍ تتناسب مع أدبٍ خاصٍّ» [داورى اردكانى، ملاحظاتى در باب تكنيك، ص188].

وأخيرًا نؤكّد أن الاهتمام بخصائص عـــصر التكنولوجيا ومميّزاته وتحليلها يساعدنا على فهمٍ أدقّ وتوضيحٍ أشمل لمكانة العقيدة الصحيحة في عصرنا هٰذا.

[للتعرّف على ميزاتٍ أخرى انظر: Waters, Modernity: Critical concepts, V.1, pXii-Xiii]

إضافــة إلى ذٰلك فإنّــه يمكننا الاطّــلاع على بعض المشــاكل الثقافيّة والاقتصاديّة والسياســيّة وغيرها بواســطة ذٰلك الاهتمــام، وعرض بعض المقترحات لحلّها وعلاجها.

محوريّة العقيدة في عصر التكنولوجيا

لا ريب في أنّ كلّ إنســانٍ يبحث عن ســعادته، ولا يألو جهدًا في ســبيل الحصول عليها. فإنّ نيل قمّــة الكمال ونهايته يعدّ من آمال البشر القديمة، ولٰكنّه اتّخذ أشــكالًا ومصاديق متعدّدةً حسب ما تقرّره صفحات تاريخ فكر البشر، ويبدو أنّ عرض المصداق الحقيقيّ لســعادة الإنسان وتعريفها يكمن في تحليل ماهيّة الإنسان.

الإنســان لا يرضى دون شكٍّ بأن يُحسب في عداد الحيوانات أو النباتات، أو شــكلًا من أشــكال الجماد، ولو عُدَّ أكثرها تطوّرًا وتقدّمًا؛ لأنّ أفضليّة الإنسان تعود إلى خصوصيّة امتيازه عن سائر الأنواع، وهو التعقّل الّذي يُعدّ أهمّ مزايا نوع الإنسان. فلا محيص من البحث عن سرّ سعادة الإنسان وكماله في التعقّــل والالتزام بما يقتضيه، حتّى وإن حكــم العقل بعجزه عن إدراك بعض الحقائق ولزوم الالتجاء إلى حضن الوحي والرسالة. ولا شكّ أنّ دراسة هٰذا الموضوع تتطلّب مجالًا آخر وأوسع.

العقيدة وسعادة الإنسان

لو هبطت مكانة الإنسان في هٰذا العالم إلى مستوى حيوانٍ متطوّرٍ، ستكون الأصالة للتقدّم المادّيّ، ويقتصر التطوّر في ارتقاء البعد الحيوانيّ للإنسان، وسيغفل عن سائر الأبعاد الّتي لا تقلّ عن البعد الحيوانيّ أهمّيّةً وشرفًا. وفي هٰذه الحالة سيبذل الإنسان كلّ جهده ويصرف همّه وقدراته في متابعة هواه، ويسلك سبيل المنفعة المادّيّة وطلب الدنيا ونيل اللذّة والراحة والقدرة، وحتّى لو توفّرت له أكثر الإمكانيّات الترفيهيّة تقدّمًا فإنّه سيبقى يلهث وراء التنوّع الجامح. فلا يمكن الركون إلى الموارد المذكورة أعلاه للحصول على السعادة الحقيقيّة للإنسان؛ لأنّها ناظرةٌ إلى البعد الحيوانيّ للإنسان.

فالعلوم الحديثة ونتاجاتها لا تخدم الإنسان إلّا إذا سُخّرت لحصوله على ما يضمن سعادته الحقيقيّة. فالإنسان لا يستغني عن العقيدة كلّما تطوّر في البعد التكنولوجيّ، ويمكن الإشارة إلى ما هو أبعد من ذٰلك، وهو ضرورة لجوء الإنسان إلى العقيدة الصحيحة والراسخة؛ ليأمن من آثار التكنولوجيا المهدّمة والخطرة، الّتي توهم غنى الإنسان عن العقيدة أو التقليل من أهمّيّتها في هٰذا العصر، ومن مصاديق ذٰلك الطغيان الّذي أشير إليه في الأديان الإلٰهيّة.

[انظر: سورة العلق: 6 و7 نموذجًا]

يرى كاتب هٰذه المقالة - ويكرّر ما ذكره من جديدٍ - أنّ الاستفادة الصحيحة من نتاجات العلوم التجريبيّة - ولا سيما توظيفها في طريق الوصول إلى السعادة الأبديّة - مطلوبةٌ، بيد أنّه ليس من الصحيح التصوّر أنّ التكنولوجيا بوسعها أن توصل الإنسان إلى المقصود، وتغنيه عن العقيدة الصحيحة. إضافةً إلى ذٰلك يمكن التوظيف الصحيح للنتاجات العلميّة وفقًا للعقيدة الصحيحة، واستخدامها في طريق ارتقاء البعد الإنسانيّ وتطويره.

أصل تقدّم المصالح المعنويّة على المنافع المادّيّة

يمكن إضافـــة نكتةٍ تلعب دورًا هامًّا في تبيين المســـألة وهي أصل تقدّم المصالح المعنويّـــة على المنافع المادّيّة، وتوضيح ذٰلك أنّـــه حينما يقع التزاحم بـــين المنافع المادّيّة والمعنويّة، ويقتضي الأمر وضع بعض المنافع جانبًا، مادّيّةً كانت أو معنويّةً، ومثال ذٰلك ما يبذله البعض من وسعٍ وجهدٍ لمضاعفة الربح المادّيّ، ويكون ذٰلك مزاحمًا ومنافيًا لكرامة الإنســـان الّذي يعدّ اختصاص جزءٍ من الساعات اليوميّة للاشتغال بالأمور المعنويّة مانعًا من النشاط اليوميّ المستمرّ لجمع المزيد من المال أو القدرة أو الشهرة ، وعندما يقتنع بأنّ التأمّل والتفكّر في مجال العقيـــدة والاهتمام بها هي مصاديق الحالات المعنويّة، يقع التزاحم بينها وبـــين المصالح المادّيّة. وعليه فإنّ تقـــدّم المصالح المعنويّة على المنافع المادّيّة يقتضي اختصاص الوقت والمال الكافي لهٰذا المجال المعرفيّ، ولا سيّما في العصر التكنولوجيّ. وتتضاعف أهمّيّة هٰذه الرؤية بعد الالتفات إلى دور الأمـــور المعنويّة في تقدّم المصالح المادّيّة [ســـورة الأعراف: 96]. وهنا نوضّح مقصودنا من ذٰلك على النحو التالي:

إنّ حقيقة الإنسان هي نفسه وروحه [ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، ج 2، ص 292 و293؛ ســـورة البقرة: 154؛ سورة آل عمران: 169؛ سورة السجدة: 11؛ سورة الأنعام: 93؛ المجلسيّ، بحـــار الأنوار، ج 68، ص 265]، وكماله الحقيقيّ وما له من قيمةٍ ذاتيّةٍ هو الّذي يزيد حظّه الوجوديّ في المجموع [ســـورة الأعلى: 14؛ سورة الشمس: 9؛ سورة آل عمران: 130؛ ســـورة الجمعة: 10]. ويمكن اعتبار القرب إلى الكمال المطلق معيارًا لتشخيص كمال الإنســـان الاختياريّ [الطوسيّ، مصباح المتهجّد وسلاح المتعبّد، ج 2، ص 850] ولســـنا الآن بصدد تبيين مصداق السعادة الحقيقيّة، وهو القرب الإلٰهيّ عن طريق طاعة الله وعبوديّته، وما يســـأله المعصومون عليهم السلام من الله ـ ســـبحانه وتعالى ـ خير شاهدٍ على ذٰلك [ابن طاووس، الإقبال بالأعمال الحسنة فيما

يُعمل مرّةً في السـنة، ج 3، ص 337]، فالقرب إلى الله هو غاية سؤلهم [المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 91، ص 148]. ولٰكن نؤكّد على نكتةٍ وهي أنّ إنسـانيّة الإنسان وكماله الحقيقيّ وما يمتاز به عن سـائر الأنواع هو رهن الأمـور المعنويّة لا المادّيّة المحضة الفانية. وما يقرّب الإنسـان إلى الله ـ سـبحانه وتعالى ـ هو عالم المعنى، وما الحياة المادّيّة الّا مقدّمـةٌ للحصول على ذٰلك العالم [راجع الروايات الواردة في باب الاستعانة بالدنيا على الآخرة: الكلينيّ، الكافي، ج 9، ص 522 ـ 528]. فلو لم تؤدّ هٰذه الحياة دورها في إيصال الإنسان إلى ما خُلق لأجله فإنّه سيخسر، وستفقد حياته قيمتها الحقيقيّة.

فالأصل والمحور في هٰذه الحياة هو تقدّم المصالح المعنويّة على المنافع المادّيّة، ويمكن العثور على قواعـد هٰذا الأصل في النصوص الدينيّة أيضًا. يقول الله ـ سبحانه تعالى ـ في محكم كتابه: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [سـورة النساء: 141]، وكذٰلك قوله تعالى: ﴿وَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِين﴾ [سورة المنافقون: 8]. توضيح ذٰلك أنّه إذا ما تعرّضت عزّة الأمّة الإسلاميّة وعظمتها للخطر بواسـطة العلاقة الاقتصادية مع دولةٍ معيّنةٍ، فيلزم الحذر من هٰذه العلاقة أو قطعها. وبهٰذا المنوال يمكن الاستغناء عن بعض النتاجات التكنولوجيّة لغرض الحفاظ على العزّة الإسلاميّة واستقلال المجتمع الإسلاميّ. ففي الرؤية الإسلاميّة تعدّ الحياة المادّيّة مقدّمةً للآخرة، والمنافع المادّيّة آلةً لتحقّق المصالح المعنويّة. فالمال والثروة ليسا هدفًا، بل هما وسيلةٌ تعين الإنسان على سلوك طريق سعادته وإنسانيّته. فلو وقع التزاحم بينهما يلزم تقديم الأمور المعنويّة. [ظ: مصباح يزدي، اخلاق در قرآن، ج 3، ص 49 و50]

وبالإضافة إلى ما سـبق، تتبيّن محوريّة العقيدة في عصر التكنولوجيا من خلال النقاط التالية:

1. أنّ العلوم التجريبيّة والتكنولوجيا يمكنها الإجابة عن الأسئلة المتعلّقة ببعد "الكيف" فقط، دون بعد "اللم" (الأسئلة المتعلقة بلمَ). وتوضيح ذٰلك أنّه ليس من شأن العلوم التجريبيّة أن تقوم بدراسة الإنسان من أين جاء ولماذا يعيش وماذا يقصد من حياته؟ وإلى أين مصيره بعد الموت وماذا سيحدث في نهاية المطاف؟ ما هو الفرق الأساس بين الإنسان والحيوان المتطوّر؟ ولو فرضنا أنّ العلوم التجريبيّة تتصدّى للإجابة عن الأسئلة أعلاه وتبيّن اللميّة، فإنّها لا تقدر على حلّ المسائل البنيويّة أعلاه استنادًا إلى العوامل المادّيّة فقط. فلا بدّ لكلّ إنسانٍ من الإجابة المقنِعة عن مثل هٰذه الأسئلة حتّى لو عاش في عصر التكنولوجيا. ولا شكّ أنّ هٰذه الأجوبة لا تُنال إلّا من خلال متابعة العقيدة الصحيحة ومن ضمنها الاعتقاد بما وراء الطبيعة. وهٰذا يعني محوريّة العقيدة في عصر التكنولوجيا.

2. يجرّب الإنسان في القرن الحادي والعشرين فترة الظلم وقتل الأبرياء بطرقٍ وحشيّةٍ وحيوانيّةٍ متنوّعةٍ، وبسبب إدارة التكنولوجيا غير الصحيحة وقع الإنسان في المهالك ودوّامة العنف والدمار، ورغم ذٰلك كلّه يمكن الوقوف أمام العدوّ الحقيقيّ للإنسان بفضل العقيدة الصحيحة. لقد قعدت الذئاب الجائعة الشرسة مترصّدةً للعقيدة الصحيحة، ترصد غفلة الإنسان عن البرمجة الصحيحة في مسير كماله الحقيقيّ والأبديّ! لقد أخذت التكنولوجيا مع ما لها من نتاجاتٍ جذّابةٍ ومدهشةٍ فرصة التفكير من الإنسان المعاصر بحيث أضحى لا يجد فرصةً إلّا لنسخ الملفّات والمقاطع الصوتيّة والمرئيّة والنصوص المستلمة من هنا وهناك، وإعادة إرسالها إلى الآخرين بدون دراسةٍ لصحّتها وسقمها. أجل، لا مفرّ من أضرار التكنولوجيا الهالكة والكثيرة إلّا بواسطة العقيدة الصحيحة والتفكير الصائب.

3. يلزم الالتفات إلى أنّ ملازمة التكنولوجيا والتعلّق الشديد بها واستخدامها الخاطئ قد يؤدّي إلى العبثيّة؛ وذٰلك لأنّ الانغماس في بحر المعلومات المتلاطم يسلب الإنسان فرصة تمييز الصحيح عن غير الصحيح، ويفقده القدرة على التشخيص؛ وبسبب ذٰلك سيتعرّض بعد فترةٍ ليست بطويلةٍ لأزمة الهويّة والاغتراب والانزواء حتّى عن ذاته. وفي هٰذه الحالة يحسب حياته غيًّا وباطلًا من دون هدفٍ، ويواجه مشاكل عديدةً ومرهقةً لا تُطاق، ومن ذٰلك على سبيل المثال التفاقمات الأخلاقيّة والعنف والاعتداء والاتّجاه نحو مجموعاتٍ منحرفةٍ وإرهابيّةٍ، والابتلاء بالأمراض الروحيّة والانهزام والخيبة. فالتزوّد من العقيدة الصحيحة والتنعّم بها يحفظ الإنسان من الوقوع في هٰذه المآزق.

4. يمكن تقسيم حاجات الإنسان إلى قسمين هما الحاجة المادّيّة والحاجة المعنويّة. والتكنولوجيا ومعطياتها قادرةٌ على تلبية بعض الحاجات المادّيّة في عصرنا هٰذا، أو تتصدّى لسدّها في القريب العاجل، ولٰكن لا يسعها بمفردها توفير الكثير من حاجات الإنسان المعنويّة أو جميعها. فإنّ الشعور بالهدوء والسكينة والأمن على صعيدي الفرد والمجتمع، وامتلاك الفرصة بما فيه الكفاية للتفكير والتبصّر واستلام الأجوبة المقنعة للأسئلة البشريّة الأساسيّة، وأمل الحياة السعيدة، وتقلّص الإجرام والانحراف؛ كلّه متاحٌ بإدارة التكنولوجيا الصحيحة، وامتلاك المعتقدات السليمة المطابقة للواقع. ويلزم الانتباه إلى أنّ سُقّام العقيدة وقطّاع طريقها لا يتسكّعون دون مبالاةٍ، بل يسعون في عرقلة سير الإنسان والوقوف بوجه طريقه إلى الفوز والفلاح، باستخدام التكنولوجيا بعيدًا عن الأهداف الإنسانيّة والأخرويّة، ويشغلون الناس ويغرونهم بجمال المنتجات العصريّة، ولٰكنّ العقيدة من شأنها أن تعدّ أقوى قدرةٍ باطنيّةٍ رادعةٍ، وأشدّها تأثيرًا وتفاعلًا.

5. من الممكن أن تُحدّ وتضيق حرّيّة الإنسان في عمله أو تفكيره في بعض الظروف إثر استخدامه للتكنولوجيا؛ وذٰلك لأنّ التكنولوجيا ـ رغم فائدتها الكبرى ـ تلازم الأسس الفكريّة الخاصّة بالضرورة الناشئة بما يقتضيه عصر التجدّد. [ظ: شريح، الأسس البنيويّة لفكر الحداثة الغربيّة]

فالتصوّر الآليّ للتكنولوجيا وعدّها أداةً يمكن دراسة قيمتها من خلال كيفيّة استخدامها غير صحيحٍ. فالتكنولوجيا بمعناها العصريّ وعلى أساس ما وضّحناه في بدء مقالنا هٰذا ليس من قبيل سكّينٍ تستخدم استخدامًا حسنًا كقطع بعض الفواكه تارةً، وسيّئًا تارةً أخرى لقطع رقاب الأبرياء. [للاطّلاع على بعض الاستدلالات للدفاع عن هٰذه الرؤية ومناقشتها راجع: داوري أردكاني، ملاحظاتى در باب تكنيك، ص 195 ـ 199] في الحقيقة إنّ التكنولوجيا الصالحة للترويج الذاتيّ تشتمل على عقائد وأسسٍ وقيمٍ خاصّةٍ تحمّلها تدريجيًّا وبصورةٍ غير مباشرةٍ وغير محسوسةٍ على الفكر البشريّ وسلوكه، بحيث يحتاج ظهور آثار سيطرتها على الثقافات زمنًا طويلًا. فمن الضروريّ أن نتعامل مع نتاجات العلوم الحديثة معاملةً خاصّةً بمعنى أنّه يلزم مقارنة أبعادها كلّها، والوقوف أمام آثارها بكلّ جدٍّ واستماتةٍ.

نظرًا لما سبق؛ على الإنسان أن يسخّر التكنولوجيا ويطوّعها لخدمته وتحقيق مصالحه المادّيّة والمعنويّة بشكلٍ متّزنٍ، ولا يسمح لها أن تسلب إرادته وحماسه في تبنّي العقيدة الصحيحة والرغبة فيها والالتزام بما تقتضيه، فليس من شأن الإنسان أن يقلّل من منزلته وكرامته إلى مستوى قطعةٍ صغيرةٍ من جهازٍ تكنولوجيٍّ ويُقهر بها؛ لذا من الضروريّ الاهتمام بشكلٍ جدّيٍّ بالعقيدة؛ لأنّها تؤثر تأثيرًا كبيرًا على مصير الإنسان الأبديّ دون أدنى شكٍّ وريبٍ. وانطلاقًا من هٰذا لا بدّ من طلب الحقّ واقتفاء الطريق الصحيحة في

هٰذا المسير على أســاس الثروات المعرفيّة المكنونة في ضمير كلّ إنسانٍ لغرض الوصول إلى النتيجــة المتوخّاة. وجملة القول إنّ دخــول الجنّة الموعودة رهينٌ بالعقيدة الراسخة والعمل الصالح.

وأخيرًا نقول: لا يمكن الاســتغناء عن العقيــدة بحالٍ من الأحوال، ولا يوجد شيءٌ يســدّ مســدّها، وغاية ما يمكن النقاش فيه هــو كيف نوجد انســجامًا بين ما نعتقده ونؤمن به وبين الوسائل الحديثة لتلقّي المعلومات، فإنّ الإنســان كائنٌ يطلب الكمال فطريًّا، وطلب الكمال يتوقّف على معرفة الكمال، ولا يمكن معرفة الكمال إلّا من خلال البحث عن الرؤى الكونيّة، والأيديولوجيّات المتفرّعة عنها؛ ولذٰلك لا يوجد أيّ خيارٍ آخر للإنسان الباقي على فطرته الســليمة غير بحث قضيّة الدين والعقيدة الحقّة. وهنا نشــير إلى قضيّةٍ مهمّةٍ في هٰذا الصدد، وهي أنّ كلّ إنســانٍ مسؤولٌ على قدر ما أوتي من فهمٍ وقدرةٍ، وهو مســؤولٌ عن مصادر المعرفــة الّتي منحها له الله تعالى. ولا شــكّ أنّ الله يهدي الشخص الّذي يحثّ الخطى في البحث عن معرفة دينه، وهناك مصاديق تاريخيّةٌ كثيرةٌ لمــا نقول، ويمكن أن نجدها على مرّ الأزمان والعصور. [ظ: أردكان، ضرورة البحث عن الدين والعقيدة.. شبهةٌ وردودٌ، ص249 ـ 260]

النتيجة

يبحث الإنسان عن الحقيقة ويطلب السعادة فطريًّا، والعصر التكنولوجيّ مع ما له من ميزاتٍ وخصائص، وبغــضّ النظر عن الحكم في نجاحه في حلّ المعضلات الحياتيّة، لا يســعه بمفرده إيصال الإنســان إلى قصر الســعادة الأبديّــة. وبناءً على أصل تقدّم المصالح المعنويّــة على المنافع المادّيّة العابرة، وتوقّف الســعادة الحقيقيّــة والأبديّة على العقيدة الصحيحــة والعمل وفقًا

لهـــا، تتّضح أهمّيّة العقيدة وضرورتها ومحوريّتها في كلّ عصرٍ، ولا ســـيّما في عصر التكنولوجيا. ونظرًا لـــلأضرار الناتجة أحيانًا عن التكنولوجيا فيما إذا استُخدمت بشكلٍ غير صحيحٍ، وابتنائها على مبانٍ فلسفيّةٍ فاسدةٍ، وضرورة الإجابة عن الأسئلة الأساسيّة للبشر؛ لا يبقى مجالٌ للشكّ في محوريّة العقيدة في حياة الإنسان المعاصر.

قائمة المصادر

القرآن الكريم.

1. ابن سينا، حسين بن عبد الله، الإشارات والتنبيهات مع الشرح للمحقّق الطوسيّ، ج 2، نشر البلاغة، قم، 1375ش.

2. ابن طاووس، عليّ بن موسى، الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يُعمل مرّةً في السنة (ط ـ حديثة)، تحقيق: جواد قيومي أصفهاني، مكتب الإعلام الإسلاميّ، قم، 1418 هـ.

3. ابن منظور، لسان العرب، ج 9، دار إحياء التراث العربيّ ومؤسّسة التاريخ العربيّ، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، 1419 هـ/ 1999 م.

4. أردكان، محمّدعلي، (ضرورة البحث عن الدين والعقيدة.. شبهةٌ وردودٌ)، مؤسّسة الدليل للدراسات والبحوث العقديّة، مجلة الدليل، العدد الأوّل، خريف 2017م.

5. اعرابى، سيد محمد و حسين منّتى، استراتژى تكنولوژى، تهران، مهكامه، 1389 . ش.

6. أ. وارم العيد وبرج بوعريريج، (البعد الثقافيّ للعولمة وأثره على الهويّة الثقافيّة للشباب العربيّ / الشباب الجامعيّ الجزائريّ نموذجًا)، مجلّة جيل العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، مركز جيل البحث العلميّ، العدد الثاني، ص 9 ـ 25، جوان 2014م.

7. داورى اردكانى، رضا، (ملاحظاتى در باب تكنيك)، فصلنامهى "نامه فرهنگ"، وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامى، تهران، عدد 32ـ33، 1378 هـ. ش.

8. رفيق، أبو بكر، (مخاطر العولمة على الهويّة الثقافيّة للعالم الإسلاميّ)، دراسات الجامعة الإسلاميّة العالميّة شيتاغونغ، المجلّد الرابع، 2007م.

9. شريح، محمّد عادل، الأسس البنيويّة لفكر الحداثة الغربيّة، دار الفكر، دمشق، 1429 هـ.

10. الطوسيّ، محمّد بن الحسن، مصباح المتهجّد وسلاح المتعبّد، مؤسّسة فقه الشيعة، بيروت، 1411 هـ.

11. الفيّوميّ، أحمد بن محمّد بن عليٍّ المقريّ، المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعيّ، مؤسّسة دار الهجرة، قمّ، 1414 هـ.

12. الكلينيّ، محمّد بن يعقوب بن إسحاق، الكافي (ط ـ دار الحديث)، دار الحديث، قمّ، 1429 هـ.

13. المجلسي، محمّدباقر بن محمّدتقيّ، تحقيق جمعٍ من المحقّقين، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، 1403 هـ.

14. مصباح (يزدى)، محمّدتقى، اخلاق در قرآن، تحقيق و نگارش: محمدحسين اسكندرى، مؤسّسهى آموزشى و پژوهشى امام خمينى ، قم، چاپ پنجم، 1391 هـ ش.

1. Copleston, Frederick C, A history of philosophy, New York: Doubleday, 1985.

2. Ellul, Jacques, the technological system, translated from French by Joachim Neugroschel, New York: Continuum, 1980. pp23 _ 34 .

3. George, Susan Ella, Religion and Technology in the 21st Century: Faith in the E_World: Faith in e_world, London, 2006.

4. Heidegger, Martin, The Question Concerning Technology and Other Essays, Garland Publishing, 1977.

5. Waters, Malcolm, Modernity: Critical concepts, London: ROUTLEDGE, 1998.